

البصرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

—•••••—

خرجنا من الناصرية على الفرات جنوبي العراق نريد البصرة
يوم الخميس ٣٠ أبريل سنة ١٩٣٦ والساعة ثلاث وعشر دقائق
بعد الظهر ، والناصرية حاضرة لواء المنتفق بنيت على نظام حسن
منذ ثمانين عاماً ، وسميت باسم ناصر باشا السعدون رئيس عشائر
المنتفق ، وبينها وبين البصرة مائة وخمسة عشر ميلاً .

سارت بنا السيارة ثلاث ساعات على حافة البادية بادية الشام
في قسمها الجنوبي المسمى بالسواة ، نجد على البدرج نجد وزى
الشيخ والقيصوم ؛ وبيننا نحسب الساعات والأميال ، تشوقنا
البصرة وذكراتها . قال أحد الرفاق : أنظروا إلى شجر الأثل —
هذا أثل الزبير . فأرانا المدينة

مدينة الزبير مدينة صحراوية على مقربة من البصرة الحديثة
بينهما نحو عشرة كيلات ، وكانت في المصور الخالية قسماً من
البصرة القديمة ، سميت باسم الزبير بن العوام أحد الصحابة قتل
بعد موقعة الجمل في وادي السباع على مقربة من المدينة ودفن بها
وسكان الزبير معظمهم مجديون أهل نشاط وتجارة ، وقد
جلبت إليها الحكومة العراقية الماء من البصرة منذ سنتين وكان
شربهم من الآبار

وبها من الشاهد قبر الزبير رضي الله عنه في مسجد كبير ،
وفي جانب من هذا المسجد قبر عتبة بن غزوان مؤسس البصرة
في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما . قلت في نفسي : قبر عتبة
يذكرني بالفتح والتميم ، وضريح الزبير يذكر بالخلاف والقتال بين
المسلمين ، وتلك أمة قد خلت . أسأل الله لإصلاح النفوس وتأليف
القلوب . وخرجنا من مسجد الزبير إلى ظاهر البلد فرأينا قبة صغيرة
تحتها قبران : قبر الحسن البصري ، وقبر محمد بن يسري من التابعين ،
قلت : قد اصطحابا حيين وميتين . وإن الذي يذكر الحسن بملأ نفسه
الاجلال والاكبار لهذا الرجل رجل الذكاء والعلم والفصاحة
والورع والجرأة في الحق . وقد روى عن ثابت بن قررة أنه قال :

ما أحسد هذه الأمة العربية الأعلى ثلاثة أنفس : عمر بن الخطاب
والحسن البصري والجاحظ . وقال عن الحسن : كان من
دراري النجوم علماً وتقوى ، وزهداً وورعاً وعفة ووقفاً
ومعرفة... يجمع مجلسه ضرورياً من الناس ، هذا يأخذ عنه الحديث ،
وهذا يلقي منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام ، وهذا
يحكي له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الوعظ ،
وهو في جميع ذلك كالبحر العجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج
تألقاً . ولا تنس موافقه ومشاهده في الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر عند الأمراء وأشباه الأمراء بالكلام الفصل واللفظ
الجزل .. الخ

وأما قبور الصالحية التي ذكرها ابن بطوطة كالك بن دينار
وسهل بن عبد الله فلم نجد عند القوم خبراً عنها . وأما قبر أنس
ابن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم فمند وادي السباع
بعيد عن المدينة .

فصلنا عن مدينة الزبير فرأينا على بعد قبة منفردة في البرية
وعرفنا أن تحتها ضريح طلحة بن عبد الله أحد الصحابة ، وقد
قتل في وقعة الجمل أيضاً . ثم مررنا بمأذنة مفردة ليس بجانبها
بناء فقيل إنها مأذنة مسجد على رضى الله عنه . وكان هذا المسجد
في وسط المدينة . وكان مسجداً عظيماً بقي وحده بعد خراب
البصرة القديمة ورآه ابن بطوطة وقال إنه من أحسن المساجد
وسمته متناهي الانقراض ، مفروش بالحصباء الحمراء التي يوثق بها
من وادي السباع ، وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضى
الله عنه يقرأ فيه لما قتل

ثم دخلنا مدينة البصرة وهي على ثمانية أميال إلى الشمال
والشرق من البصرة القديمة التي تم خرابها في أوائل القرن —
الثامن الهجري وخراب البصرة بضرب به المثل

ولقد كثر تحييط بالمدخل إلى البصرة ، إنها ذكر الفتح والتميم
الاسلامى . إنها ذكر العلوم والآداب العربية . هنا ولد النحو
وعلم اللغة ؛ هنا أبو عمرو بن الملاء والخليل بن أحمد وسيبويه
والأصمعي ثم الحريري ؛ وهنا بشار وأبو نواس ؛ وهنا أئمة المتهمة
إبراهيم النظام وأبو الهذيل الملاف ؛ وهنا نادرة الزمان أبو عثمان
الجاحظ . هنا إخوان الصفاء الذين دونوا خلاصة الفلسفة

الإسلامية، وهنا المريد حيث كان يجتمع الشعراء والنصحاء فيستمع الناس ويقضون لشكهم على آخر. هنا أنشد جرير والفرزدق وغيرهما.
سألت أين المشان قرية الحريري التي كان بها نخله الكثير فقل
لا يزال اسمه معروفاً شمال البصرة فأنشدت ما كتبه سديد الدولة
ابن الأنباري إلى الحريري :

سقى زرعى الله المشان فانها محل كرم ظل بالمجد حالياً
أسائل من لافيته كيف حاله فهل يسألني عنى ويعرف حالياً
البصرة اليوم مدينة عاصرة كبيرة ، واسمة التجارة قد شمل
التنظيم الحديث قسماً كبيراً منها . وقسمها الحديث يسمى المشار
يقع على شط العرب، وتشرف على هذا النهر العظيم قصور أغنياء
البصرة تزين فيها الفنى والبذخ والترف، لها مجالس على النهر
وسلاطيم ترسو عليها الزوارق

وعلى بضعة أميال من المدينة تقع ميناء البصرة الحديثة.
تدخل إليها البواخر الكبيرة، ولها مستقبل تجارى وحربى عظيم؛
والجهة التي بها الميناء تسمى معقل ويسمىها الأوروبيون صركيل
وأحسبها منبأ باسم معقل بن يسار الزنى . وكان هناك نهر يسمى
نهر معقل . وجاء فى الأمثال : إذا جاء نهر الله فقد بطل نهر معقل
وبالبصرة مدينة الهندية العربية فهي واقعة على شط العرب
العظيم تخرج منه أنهار كثيرة تحترق المدينة ، فتجد الأنهار في
شوارعها الفسيحة تطل عليها الدور والبساتين

وأذكر أنى سرت من المدينة إلى أبي الخصب في طريق معبدة
تظللها النخيل والأشجار نحو عشرين ميلاً فاجتازت أربع عشرة
قنطرة على الأنهر الآخذة من شط العرب

وبالبصرة أكثر بقاع العالم نخلاً، بها نحو عشرة ملايين نخلة.
ويكاد النخيل يتصل ما بين القرنة حيث يجتمع دجلة والفرات
إلى مدخل خليج البصرة وذلك نحو ١٥٠ كيلاً . وقد روى
الأصمعي عن الرشيد أنه قال : نظرنا قافاً ما على وجه الأرض
من ذهب وفضة لا يبلغ ثمن نخل البصرة ... الخ

وهذا الخصب العظيم وال عمران الكثيف على مقربة من
البادية . فمن شاء تحضر ونعم بألوان الحضارة ، ومن شاء تبدى
واستمتع بحرية البداوة وبالصيد وغيره

وقد قال ابن أبي عيينة المهلبى يصف البصرة :
ياجنة فاقت الجنان فا يمد لها قيمة ولا تمن
ألفها فأنجذتها وطنا إن فؤادى لثلبها وطن
زوج حيثانها الضباب بها فهذه ككنة وذا ختن
فانظر وفكر لما نطقت به إن الأدب الفكر الفطن
من سفن كالنعام مقبلة ومن نعام كأنها سفن
وقال خالد بن صفوان : يفدو قانصنا فيجىء هذا بالشبوط
والشيم ، ويجىء هذا بالطبي والظليم ... والشبوط والشيم من
أنواع السمك

وقال ابن أبي عيينة أيضاً :
ويا حبذا نهر الأبله منظرا إذا مد في إياه الماء أو جزر
ويا حسن تلك الجارات إذا غدت
مع الماء تجرى مصعدات وتعدر
وسقيا بساتين البصرة ومزارعها من المد . وذلك أن شط
العرب يعد ويجزر . وقد وصفه الشعراء والكتاب والرحالون على
اختلاف المصور

قال خالد بن صفوان :
وأما نهرنا العجيب فإن الماء يقبل عنقا فيفيض متدفقا ، يأتينا
في أوان عطشنا، ويذهب في زمان رتنا، فنأخذ منه حاجتنا ونجمن
نيام على قرشنا . فيقبل الماء وله عباب وازدياد لا يحجبنا منه
حجاب، ولا تنلق دونه الأبواب ، ولا يتنافس فيه من قلة ،
ولا يحبس عنا من علة

وقال الجاحظ وهو يمدد عجائب البصرة :
منها أن عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد، فيقبل
عند حاجتهم إليه ويرتد عند استغنائهم عنه ؛ ثم لا يعطى عن
الأرض إلا بقدر هضمها واستمرارها ووجامها واستراحتها، لا يقتلها
عطشا ولا غرقا . يجىء على حساب معلوم ، وتدير منظوم ومدد
ثابتة ، وطادة قائمة ، يزيد ما القمر في امتلائه كما يزيد ما في نقصانه .
فلا يخفى على أهل الفلات متى يتخلفون ومتى يذهبون ويرجعون،
بمد أن يعرفوا موضع القمر وكفى مضى من الشهر ، فهي آية
وأعجوبة، ومفخرة وأحدوة ، لا يخافون الحبل ولا يخشون القحط
قال ياقوت الحموي :

كلام الجاحظ هذا لا يفهمه إلا من شاهد المد ، وقد شاهدته

في ثمانى سفرات لي إلى كيش ذاهباً وراجعاً ، ويحتاج إلى بيان ليعرفه من لم يشاهده : وهو أن دجلة والفرات يختلطان قرب البصرة ويصيران نهراً عظيماً يجري من ناحية الشمال إلى ناحية الجنوب ؛ فهذا يسمونه جزراً ، ثم يرجع من الجنوب إلى الشمال ويسمونه مداء ، يفعل ذلك كل يوم وليلة مرتين . فإذا جزر نقص نقصاناً كثيراً بينما يفيض لو قيس لكان الذي نقص مقدار ما يبق أو أكثر . وليست زيادته متناسبة بل يزيد في أول كل شهر ووسطه أكثر من سائر الخ . هـ . كلام ياقوت وهذا النظام لا يزال سارياً اليوم ، ولكن حفر مدخل الشط في السنين الأخيرة لتتمكن السفن العظيمة من الدخول فصار المد أقل مما كان قبلاً

وأما هواء البصرة فخار رطب . وكان من حسن حظنا أن كنا بها في أوائل آيار (مايو) فلم نصادف إلا هواء معتدلاً بالنهار بارداً بالليل . وقد وصف القدماء هواء البصرة بشدة الاختلاف . قال الجاحظ : من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد ، لأنهم يلبسون القمص مرة ، والبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات . ولذلك سميت بالرعاء ، قال الفرزدق :
لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعاء في وطننا
وذلك أن ريح الشمال في البصرة باردة ، وريح الجنوب حارة ؛ ولذلك قال ابن لنكك الشاعر البصري :

نحن بالبصرة في لو نر من العيش ظريف
نحن ما هبت شمال بين جنات وريف
فإذا هبت جنوب

ويكمل الشاعر بيته بشطر لا يحسن إنشاده

وكانت البصرة إلى عهد قريب كثيرة الحيات ، ويقول ابن بطوطة بعد ذكر المد والجزر : « وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد » وألوان أهلها مصفرة كاسفة حتى ضرب بها المثل . وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدي صاحب الترجمة
لله أرج غدا بيتنا معبرا عن حال ذي عبرة
كما كسا الله ثياب الضنى أهل الهوى وساكني البصرة
وسمعت في المراق أن أهل البصرة قد ألفوا الحمى حتى أن أحدهم يكون سائراً مع صاحبه فيحس الحمى فيقول له : إنذني

أن أذهب إلى البيت لأحم . هذا كله كان قبل أن تنالها يد العناية . عناية الحكومة المراقية . وأما اليوم فقد أصاحت الحكومة الطارق والأنهار والمستنقعات ، وتوسلت بوسائل طبية كثيرة حتى قلت الحمى هناك جداً ، ويرجى أن تزول فلا يبق لها أثر بعد سنين قليلة .

ومن الانصاف أن أذكر ما عرف به أهل البصرة في الماضي والحاضر من كرم الخلق ورعاية الغريب . قال ابن بطوطة :

« وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق ، وإيناس للغريب ، وقيام بحقه ، فلا يستوحش فيما بينهم غريب »
وفي ياقوت : « وقال شاعر يصف أهل البصرة بالبخل وكذب عليهم » وياقوت خبير بالبلد وأهله

وكذلك أهل البصرة اليوم تغلب عليهم الأخلاق العربية على كثرة ما نابهم من عن ، وصربهم من شدائد .

وفي البصرة مدارس أولية وابتدائية كثيرة ومدرسة متوسطة وأخرى ثانوية . والتعليم فيها يزداد ويزدهر سريعاً . وعسى أن يكون لها بعد قليل ما كان لها من مجد وصيت يوم كانت مهد العلوم العربية والإسلامية .

وبعد للبصرة من موقعها وأرضها ومائها وعناية الحكومة المراقية بها ما يضمن لها مستقبلًا زاهراً . وإنا نرجو أن تعيد سيرتها ، وتعمل لخير العربية والإسلام ما عملت في ماضيها إن شاء الله .

عبد الرهاب هزائم

نحت الطبع :

حياة الرافعي

للاستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة

نمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً